رويّ الهمزة

خير من تحت السماء

يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي، وكان قوم قد هجوه، ونحلوا الهجاء إلى أبي الطيب فكتب إليه يعاتبه، فكتب أبو الطيب إليه:

[الوافر]

أَتُنكِرُ يَا ابْنَ إِسْحاقٍ إِخَائِي
وَتَحْسَبُ مَاءَ غَيْرِي مِنْ إِنَائِي (١)
أَأَنْطِقُ فِيكَ هُجْراً بَعْدَ عِلْمِي
بِأَنَّكَ خَيْرُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ (٢)
وَأَكْرَهُ مِنْ ذُبَابِ السَّيْفِ طَعْماً
وَأَمْضَى فِي الْأُمُورِ مِنَ الْقَضَاءِ (٣)
وَمَا أَرْبَتْ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنِّي
فَكَيْفَ مَلِلْتُ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ؟ (٤)

---

(١) إنه عِتاب مدلّ وصديق؛ فما صدر من ابن إسحاق ينمّ عن تسرّع وعدم تقدير لإخلاص المتنبي، فقد اعتقد أن أبا الطيب قد هجاه، لذا فهو يعاتبه عِتاب صديق محبّ.

(٢) الهجر: أقبح القول. استرضاء لابن إسحاق يدخل في حوار معه مستفهماً؛ فمن غير المعقول أن يصدر من المتنبي ما يسيء إلى علاقتهما المبنية على الأخوَّة الصادقة والحبّ، وبخاصة أن ابن إسحاق خير من تحت السماء خَلْقاً وأصلاً ومقاماً، وتتوالى الصفات التي يحبها الممدوح.

(٣) ذباب السيف: حده، أمضى: أشدّ قطعاً. ومن صفات ابن إسحاق أن طعمه في حلوق أعدائه مرّ كطعم العلقم، يحمل لهم الموت، وهو مجدّ يمضي في تحقيق أمانيه دون توانٍ وضعف همّة، لذا فهو أسرع من القضاء في تحقيق إرادته.

(٤) أربت: زادت. يبدي الشاعر خوفه لعلمه أن ممدوحه قادر على إلحاق الأذى به، فهو لم يتجاوز العشرين من عمره بعد ولم يملّ من الحياة؛ فالمستقبل أمامه واعد، وأمانيه عذاب.

وَمَا اسْتَعْرَفْتُ وَصْفَكَ فِي مَدِيحِي
فَأَنْقَصَ مِنْهُ شَيْئاً بِالهِجَاءِ[١]
وَهَبْنِي قُلْتُ: هَذَا الصُّبْحُ لَيْلٌ
أَيَعْمَى الْعَالَمُونَ عَنِ الضِّيَاءِ[٢]
تُطِيعُ ٱلْحَاسِدِينَ وَأَنْتَ مَرْءٌ
جُعِلْتُ فِدَاءَهُ وَهُمُ فِدَائِي[٣]
وَهَاجِي نَفْسِهِ مَنْ لَمْ يُمَيِّزْ
كَلَامِي مِنْ كَلَامِهِمِ الْهُرَاءِ[٤]
وَإِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي
فَتَعْدِلَ بِي أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ[٥]

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢١٣. استغرقت: استوفيت. ولمزايا ابن إسحاق الحميدة التي لا تحصى، لم يستطع الشاعر الإتيان بذكرها في مدحه له، لذا فلا يمكنه أن يشوّهها بهجائه له فيضيع مدحه، ويذهب هباءً.

(٢) ولنفرض أنني هجوتك وقلبت الحقائق رأساً على عقب؛ فالليل ليل والنهار نهار، فلا يمكن أن يكون الليل نهاراً، ولا يمكن أن يكون النهار ليلاً؛ لذا فأنت مشهور بخير الخصال؛ فالهجاء لا يغفل من قيمتك بل يمكن أن يُنير جوانب من شخصيتك قد تكون مجهولة للبعض.

(٣) يطلب الشاعر من ابن إسحاق أن يكون يقظاً وألّا يستمع لقول الحساد؛ فهو يميّز بين الحق والباطل، والشاعر يفديه بروحه وبما يملك، ويتمنّى الشاعر أن يكون الحساد فداءً له، فهم لا يستحقون الحياة لما يتمتعون به من شرور.

(٤) الهراء: التافه، الساقط. يثير الشاعر في نفس ممدوحه ملكة الذكاء فهو قادر على التمييز بين الفاسد والصحيح من الأقوال؛ فمن لا يمكنه الحكم على الأمور بما تحمل من حقائق، فهو يهجو نفسه بنفسه ويحكم عليها بالغباء؛ فكلامه حق وصدق وكلامهم بهتان وزور.

(٥) تعدل: تساوي. الهباء: هو ما نراه في شعاع الشمس من ذر الغبار. يستغرب الشاعر من ممدوحه، وهو يعتذر منه، أن يستصغره حتى لا يراه في ضوء الحقائق شيئاً له قيمة وكأنه هباء طار في الجوّ وتبعثر في كل مكان.

وَتُنْكِرَ مَوْتَهُمْ وَأَنَا سُهَيْلٌ
طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزِّنَاءِ[١]

وعقاب لبنان

يمدح أبا عليّ هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب، وكان يذهب إلى التصوف:
[الكامل]

أَمِنَ ٱزْدِيَارَكِ فِي الدُّجَى الرُّقَبَاءُ
إِذْ حَيْثُ كُنْتِ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ[٢]
قَلَقُ الْمَلِيحَةِ وَهْيَ مِسْكٌ هَتْكُهَا
وَمَسِيرُهَا فِي اللَّيْلِ وَهْيَ ذُكَاءُ[٣]
أَسَفِي عَلَى أَسَفِي الَّذِي دَلَّهْتِنِي
عَنْ عِلْمِهِ فَبِهِ عَلَيَّ خَفَاءُ[٤]

---

(١) سهيل: نجم. يرى العرب أنه يحمل الموت والخراب. يفخر الشاعر بأنه الموت المحتم لحاسديه؛ فإذا بشروقه في سماء حياتهم شؤم مؤذن بهلاكهم، هؤلاء أولاد الزنى، فلا يعرف آباؤهم، مما يستوجب احتقارهم وركنهم على مزبلة الحياة.

(٢) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٨٦. ويروى «إِذْ حيث أنتِ» بدلاً من «إذ حيث كنتِ». الازديار: الزيارة. الدّجى: الظلمة. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني. يخاطب الشاعر زائرته الليلية إنها نور يشعّ في ظلمة الليل الحالك فتمزّق عتمته وتضيء جنبات حياته وعدم سطوعها في سماء حياته يجعل الرقباء مطمئنين فلن ينكشف أمرهم ولن تكون لها زيارة تبعثر قلقه وخوفه من الظلام في وحشة الليل.

(٣) القلق: الاضطراب. هتكها: انكشافها. الذُّكاء: الشمس. الليل عالم فسيح يحمل في طيّاته أحلاماً ورؤى وأخيلة عِذاباً للمحبين كما يحمل الخوف للمعذّبين والقلق والهمّ للمحرومين، فالمحبّ ينتظر من يحملها الحبّ على تخطي حاجز الخوف لترتمي بأحضان حبيبها، والمبشر بمقدمها تضوّع المسك يسيح في أرجاء المكان عبقاً مسكراً؛ إنها الشمس بدفئها وحنانها في عتمة الحياة.

(٤) دلّهتني: تيّمتني. لقد فات الشاعر فرصة غالية وأسفه على ما جعله يأسف فوات فرصة الشعور بمعنى الحبّ ولقاء الحبيب؛ فهو المدلّه الذي أضناه الحبّ وذهب بعقله، فثمّة شيء لم يعرفه على حقيقته بقي خافياً عليه؛ وهنا يعمق الأسف في روحه وعقله.